البرجوازية المسلمة في الشرق الادنى خلال العصر العباسي

ترجمة
أ.د.جاسم صكبان علي
كلية ٠ التربية للبنات
جامعة بغداد

(خلاصة البحث)

أصبح القصور في النظام الاسلامي على اية حال أكثر وضوحا في الفترات اللاحقة تحت حكم اول خليفة عباسي. كانت البرجوازية ما تزال طبقة جديدة ترتفع في السلم الهرمي ضمن امبراطورية الخلافة. واصبحت طبقة ذات قوة حقيقية يحسب لها حساب. يبدو ان معظم المستشرقين لاحظوا حقيقة ان لمدة ٣٠٠ سنة ان البرجوازية في الشرق الادنى حاولت ان تقاوم الاقطاعية وكان هناك صراع بين طبقتين كانت اهدافهما مهيمنة على التاريخ الشرقي.

لقد أوضحت مختلف الروايات التي اقتبست من المصادر العربية الى وجود تزامنية ملحوظة والتي بدأت في نهاية القرن الثاني عشر/السادس الهجري حيث كان كلما يحصل البرجوازيون على حصتهم داخل الحكومة يبرز في الوجود الأفراد ولكن التيار اتجه بشكل معاكس اذ استجمع الأمراء الإقطاعيون في بعض المدن قواهم وقام آخرون بإرساء نظام جديد.

المقدمة:

ترجمت وجمعت هذا البحث من عنوانين جانبيين في فصلين مستقلين (الثالث والسادس) من كتاب A social and economic history of the near east in middle ages لمؤلفه E.Ashtor، المولود في فينا (١٩١٤-١٩٨٤). كما عملت للبحث فهرسا عاما للمصادر والمراجع المستعملة فيه.

وارجعت كتابة المصادر العربية المكتوبة بالحروف الاجنبية الى الحروف العربية. مع ذكر تاريخ وفاة مؤلفيها.

ركز المؤلف في كتاباته وبحوثه على القضايا الاقتصادية في المجتمع الاسلامي. واشار في معظم مؤلفاته الى اهمية المجتمع الاسلامي في تطور وتقدم مجتمعات اهل الذمة ضمن دولة الاسلام.

بدأ المؤلف في كتابه المذكور اعلاه بمقدمه للفصل الثالث المعنون (ذروة الإمبراطورية) قال فيها: -

أن سقوط الأمويين سنة ٧٥٠ م / ١٣٢ هـ. واعتلاء العباسيين عرش الخلافة كان يعني أكثر من كونه تغيير السلالات. فقد خضع كل نظام الحكم للتحويل وللتغير التام. أن حكم الأمويين كان نوع من الاحتلال العسكري بمساعدة القبائل العربية الذين فرضوا أنفسهم على الإدارة البيزنطية والفارسية. والعباسيون من جانب أخر قاموا بعرض عظيم لإنجاز تطلعات المسلمين المتشددين الذين دعموا ثورتهم وبناء الحكومة الدينية. في حين كثير من الدول التي كانت تحت الحكم الأموي والتي فتحت من قبل العرب ضلت مراكز ومناطق اقتصادية وثقافية، وقد ضم العباسيون هذه المناطق إلى الإمبراطورية الاسلامية العظيمة.

أن القوة العسكرية والسياسية للعباسيين بدأت تختفي بوقت قصير بعد استلامهم العرش. وبدأ نطاق حكمهم يتقلص تدريجيا، لكن في الوقت نفسه أصبح التماسك الاقتصادي للدول الإسلامية أقوى. وهذه الدول التي لم تعترف لمدة ليست طويلة بسيادة الخليفة. لم تقطع الروابط الاقتصادية مع الأجزاء الأخرى للإمبراطورية. لذلك برزت أثناء القرن التاسع / الثالث الهجري وحدة اقتصادية عملاقة معتمدة على التبادل التجاري لم تسبقها وحدة اقتصادية مماثلة لها أبدا بتاريخ العالم القديم. إن الهيمنة الاقتصادية للإمبراطورية العباسية على مناطق من أسيا وإفريقيا وحتى على أكثر مناطق غرب أوربا كانت ساحقة واستمرت نسبيا لفترة حوالي ٢٠٠ سنة.

ثم ذكر مجموعه من العناوين الجانبية وكان اخرها هو:

نشوء البرجوازية المسلمة

الذي قال فيه: بدأت تحت حكم اول خليفة عباسي بدأت طبقة جديدة من المسلمين البرجوازيين تلعب دورا في الاقتصاد، والسياسة وكذلك الحياة الثقافية في الشرق الادنى. والى حد ما كانت من اهل بلاد فارس الذين استقروا في ارض الهلال الخصيب الذي يتحدث سكانه المسيحيون الآرامية والاقباط الذين احتضنوا الاسلام وجنوا الاموال من التجارة ولكن هذه الطبقة البرجوازية تتألف ايضا من العرب الذين كان اباؤهم تجاراً في المدن العربية وكانوا متمسكين بحرفتهم. كان بعضهم الاخر من العرب الذين أصبحوا تجاراً مختصين مروجين لجيش الخليفة وأغنوا أنفسهم وبعضهم خدم في جيش المسلمين في حملاتهم وبعد ذلك في تجارة البضائع والسلع المترفة الغالية مثل الاحجار الكريمة، والعطور وكذلك العبيد وفي بعض الاحيان المنسوجات. ان تجارة المنسوجات من دون شك كانت مربحة منذ ان ارتفعت اسعار المنتجات الصناعية أكثر من المنتجات الزراعية. هذا كان أحد عواقب الحياة الذي قدمته الخلافة العباسية. وكانت الخدمة في ادارة الخلافة أصل ثروات اخرى كثيرة منذ بداية حكم المسلمين كان الحكام وحاشيتهم يستغلون مناصبهم للحصول على ثروات كبيرة.

لا داعي للذكر انه في ايام الازدهار استعملت كل الوسائل للحصول على الثروة. وكان المال في طبقات معينة يعتبر الشيء الوحيد ذو القيمة الحقيقية في هذا العالم. قام الكتاب العرب في القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري يوصف هذه الأجواء بمصطلحات زاهية [1].

عمل الأغنياء الجدد على استثمار بعض أموالهم بأعمال ائتمانية. لم تترك المصادر العربية أي شك انه في نهاية القرن الثامن / الثاني الهجري كانت الترتيبات الائتمانية بمختلف الاشكال شائعة في كلا الجانبين التجاري والصناعي كان واحد منها يعرف بالمضاربة وكان عبارة عن قرض يعطى الى التاجر المضارب مقابل حصة من الربح نعطى له ومن دون فرض أي

مسؤولية عن خسائر على العميل. وبشكل عام كان فقهاء المدرسة الحنفية يعدون الاستلاف شكلا قانونيا للاستثمار حتى في بداية الفترة العباسية، لكن الاثرياء الجدد عادة ما يستثمرون جزءاً من اموالهم في عقارات في مناطق ريفية علاوة على ذلك كانوا مولعين بشكل كبير في الحصول على عقارات وكانوا يستخدمون كل الوسائل للحصول عليها. أصبح بعض رجال الاعمال الأغنياء والمقامرين يفرضون ضرائب على المزارعين وهذا عمل مربح بشكل كبير[٢].

ان المسلمين البرجوازيين الجدد كيفوا أنفسهم بشكل قريب الى طريقة الحياة الارستقراطية المأخوذة من قدماء النبلاء الفرس والذين أصبحوا مسلمين وكذلك من خلال الرؤساء العرب. في حين كان بعضهم في الوقت نفسه لاج لان يبرئ نفسه من الاثم بلعب دور المكيين بينما في الوقت نفسه لعب دور علماء اللاهوت الورعين بجمع اقوال الرسول (صلى الاله عليه وآله وسلم) الاكثر ثقة التي مواتيه لاكتساب الثروات وبعض من الادباء مدح الاغنياء واشاد بحرف المسلمين الاوائل ليكونوا تجاراً او حرفيين. أصبح عدد كبير من التجار انفسهم مهتمين بعلوم الاسلام مثل القران وكذلك القانون وكما كانت دائما، لم يكن عدد قليل من ابنائهم من كرس نفسه بشكل كامل لحياة العلماء. ويمكن ان يظهر هذا واضحا في دراسة المجموعات العربية للسيرة الذاتية. ان معظم فقهاء هذه المدة يعودون في الاصل الى الطبقة البرجوازية حيث كانوا تجاراً او أولاد تجار. وجد (H.J. Chen)، بالتدقيق في القواميس التصويرية ٤٢٠٠ دراسة ذكرت فيها حرفهم وبالتأكيد يجب ان تقبل استنتاجاته(كوهين) كعهود صريحة جدا بسبب تعقيدات اللغة العربية. لا يمكن للشخص ان يكون متأكداً بأن الكنية اعطيت للرجل بسبب حرفته او اعطيت الى الاجداد وثانيا يوجد غموض لأسماء حرف عربية عدة التي تعطي الى صاحب العمل والبائع لسلعة معينة.

كانت الاحداث، والنتائج الرئيسية لبحث كوهين مثيرة للدهشة حيث انه وجد ان ٦٠، ٦% من فقهاء المسلمين في القرن التاسع الميلادي / الثالث

الهجري كانوا من التجار وثلث منهم بدأوا بتجارة المنسوجات علاوة على ذلك انه توصل الى نتيجة مفادها ان لا تغيرات حصلت منذ تأسيس الحكم العباسي(٣).

تعود الاغلبية من الفقهاء المسلمين الى طبقة الاثرياء، انه من الواضح ان المبادئ القضائية تطورت في العراق في بداية الحكم العباسي وذلك نتيجة التأثير الواضح لمدرسة الحنفية على مستوى التطبيقات التجارية. ويتضح هذا بشكل مقنع بها الاتساق بين هذه القواعد والاعراف بين التجار موضحة من قبل (Judaco) في كتابه الرسائل العربية المؤرخة من القرن الحادي والثاني عشر الميلادي / القرن الخامس والسادس الهجري والتي عثر عليها في جنيزة القاهرة. قدماء الحنفية ميزوا أنفسهم بفهمهم العميق لاحتياجات التجارة واهتمامات التجار. وهذا هو الاستنساخ الذي تم اخذه من دراسة الفصول في كتب القانون التي يتعامل مع صفقات تجارية ان استخدام التفضيل القضائي بدلا من انشاء طريق القياس الدقيق حيث ان القانون القضائي يمكن ان يتعارض مع مصالح التاجر كان من الصفات المدهشة للحنفية المنطق القضائي الربح هو المحل الذي يأخذ كثيرا في الاعتبار الممارسات التجارية عند وضع القواعد لها(٤).

اصبحت خلال هذه الفترة طبقة المسلمين البرجوازيين حقيقة اقتصادية يحسب لها حساب. ومع الوقت اصبحت تؤدي دوراً في الحياة السياسية غاليا في نهاية هذا القرن. انتظرت الطبقة البرجوازية الجديدة فترة طويلة قبل ان تحصل على مناصب في اعلى السلم الهرمي من الامبراطورية الاسلامية. الطبقة الفارسية العليا كانت تحت حكم الامويين الذين احتلوا مراكز ثابتة في حكم الخلافة، ان سيطرة الطبقة الارستقراطية الفارسية تحت حكم اول خليفة عباسي كانت ذات صفات مدهشة للتغيير الذي جلبه الحكام الجدد حيث كان امير البرامكة علامة لذلك. لكن ايام الخليفة المأمون ٨١٣-٨٣٣م / ١٩٨-٢١٨ هـ بدأت الطبقة البرجوازية العليا بتسلق سلالم الرتب الاجتماعية. وتشير الكثير من النصوص في وقائع عظيمة عند الطبري الى المكانة الرفيعة التي حصل

عليها جعفر بن دينار الخياط العراقي الاصل، في جيش الخليفة في حكم المأمون وخلفائه ولكن لإجابة القول ان العهد الذي بدأه البرجوازيون بدأ بلعب دوره في المؤسسات المدنية والذي كان واضحا بشكل كبير.

الخليفة المأمون في هذه الفترة ٨٣٣-٨٤٢م / ٢١٨-٢٢٨ هـ عين بدلا من الوزير الفضل، (مروان مالك اراضي من أصل رفيع ونبيل. وبعدها تاجر)، وأصبح احمد بن عمار الطحان سكرتيره وبعد فترة قصيرة شغل كل وظائف الوزير ولكن المعتصم أصبح غير راضياً عن خدماته وعين وزيرا له وهو محمد بن عبد الملك الزيات (تاجر زيت) حيث كان يعود الى عائلة من التجار الأغنياء في مدينة دسكرة وبعدها في بغداد (٥). منذ ذلك الوقت والبرجوازيين في العراق شاركوا في الحكومة بقادة من الحرس التركي للخليفة. ظهرت طبقة من الأغنياء أصحاب الاملاك والذين احتلوا مناصب عليا في حكم الخليفة في المسلمين البرجوازيين الجدد وكانت تسطير على ديوان الخليفة. أصبحت طبقة الكتاب المجموعة الأكثر تأثيراً وينبغي تفريقهم عن علماء الدين الذين مثلوا الجناح الاخر من البرجوازيين الجدد.

ونظراً لكثرة الذهب وازدهار الصناعة والتجارة الخارجية وظهور البرجوازيين المسلمين الأغنياء ظهر السؤال التالي لماذا لم تزدهر طبقة الرأسمالية في حكم العباسيين ن لأنه لا يوجد أدني شك في زمن العباسيين ان اقتصاد الشرق الادنى وصل الى حالة ما قبل الرأسمالية.

نلاحظ ان طبقة التجار والأغنياء من أصحاب الأملاك في الإمبراطورية الإسلامية تقوم على الأنشطة التي تقوم لها وسائل المحاسبة، كانت هناك سوق حرة نسبيا لا تميز هذا الاقتصاد الرأسمالي، كما عرفها على سبيل المثال ماكس ويبر (مقتبس من نص ويبر: ان حقبة كاملة يمكن تميزها بانها رأسمالية فقط كشرط كما يريدها بأنها نظمت رأسماليا كدرجة سائدة إذا تخيلنا ان هذا الشكل او التنظيم يأخذ او يسحب كل النظام الاقتصادي الى الانهيار. إن بعض الفئات الاقتصادية في الشرق الادنى في فترة الحكم العباسي تمتلك صفات رأسمالية لكن كنظام اقتصادي بصورة عامة لم يكن رأسمالياً. ان تراكم رأس المال لم

يكن جيدا بصورة يمكن ان يسيطر على صناعة المنتجات في الشرق الادنى. تنتج بصورة نسبية الصناعات الكبيرة عادة للتصدير ولكنها لا تسطير على التجارة التي تباع منتجاتها في بلدان اخرى، كما تفعل الرأسمالية العظمى في (فلورنس) في القرن الرابع عشر الميلادي / الثامن الهجري بما ان هياكل او بنية الصناعات لم تكن متماثلة. حيث كان هناك صناعات ملكية وصناعات خاصة في بعضها كانوا يستخدمون (نظام السخرة)، عمال من العبيد وفي بعضها لم يكونوا يستخدمون هذا النظام وفي بعض المصنوعات كما في الصناعات المنزلية الموجودة في القرى تعود الادوات عادة الى العمال، وبعضهم الاخر كانوا مجرد موظفين على أي حال لم يكن هناك أي سبب قوي او غالب لإعطاء الإمبراطورية الإسلامية الاقتصادية صفات الرأسمالية الحقيقية[٦].

ان تحريم المسلمين اقراض المال بفائدة بالتأكيد لم يكن عقبة في تطور اقتصاد رأسمالي حقيقي ولم تسمح بتداول الاحتكار لغير المسلمين/ كما يذكر (ماسنجن) في الحقيقة قام المسلمون بتجنب قانون الربا[٧]. لكن قانون الوراثة في الاسلام اعاق تجمع رأس المال لدى عوائل الاغنياء من التجار وفقا لهذا القانون الموصي بتركة يمكن ان ينظم ثلث ملكيته وليس أكثر وفي الوقت نفسه ان وصية الى أحد الورثة الشرعيين تعتبر نافذة وقانونية من دون موافقة الاخرين. في حالة لم تكن هناك وصية يجب ان تقسم بين الورثة المبينة حصصهم في القران الكريم وحسب ما جاء في القران وفي أحاديث الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) عددهم اثنا عشر وحصصهم عرضة لتغيير حسب الظروف وهناك ورثة يشملون الاصول مثل (الاب، الجد، الاخ وكذلك النسل من جانب الجد. الخ). ان القانون الاسلامي في الوراثة أسفر عن التبديد في الحصص الكبيرة فأنه من المؤكد ان الجزء الكبير من الملكية وفقاً لهذا القانون تذهب الى الورثة التكميليين الذين كان عددهم في اغلب الحالات معقولاً.

ان النشاطات التجارية في الحكومة الاسلامية، اعاقة تطور الاقتصاد الرأسمالي. في معظم بلاد المسلمين وفي كل الفترات يتدخل الامراء في التجارة

حيث يبيعون كميات كبيرة من الحبوب التي يقومون بجمعها كضرائب. ويأخذون جزءاً منها للتجارة الخارجية. يملك الامير سفن لتصدير البضائع الثمينة من الهند وبضائع بلدانهم الى المغرب ومناطق اخرى.

ومن جهة اخرى كانت هناك حرية في المشاريع ومن جهة اخرى ان الصناعة الخاصة والتجارية الخاصة كان عليها ان تقاوم منافسة الامراء. كانت النشاطات الاقتصادية للحكومات تقابل بشكل جزئي احتياجات المجهزين على سبيل المثال (مواد الحرب مثل الخشب والحديد غير متوفرة في الشرق الادنى. وكذلك الحبوب التي تعد من المواد الأساسية في المدن الكبيرة. على أي حال ان مشاركة الامراء في التجارة كان عقبة كبيرة في تطور الرأسمالية حذر كبار علم الاجتماع المسلمين كأبن خلدون في ذلك وادانه بشدة(٨).

هناك سبب اخر للتطور غير الواضح لاقتصاد الشرق الادنى هو عدم توفر الامان في حين ان تجار اوربا الناجحين في العصور الوسطى توفر لهم هذا الامان في مدنهم، ولم تكن لديهم اي خشية من مصادرة الامراء الاوربيين لثرواتهم لكن البرجوازيين في المشرق لا يتمتعون بهذا الامان، وكانت الحكومة تدفع عن طريق الضرائب الهائلة رواتب الجيش والموظفين مما اثقلها كثيرا، ولذا كانت اموال البرجوازيين في المشرق عرضة للمصادرة الاعتباطية لسد نفقات اصحاب الرتب العالية من الجيش والموظفين، وكانت المصادرة تهدف الى الحصول على الاموال بصورة عاجلة. حتى ان جمع الضرائب فرض على التجار وكان عبارة عن مصادرة جزء من بضائعهم او اموالهم. وصف ديونيسيوس بشكل بليغ فكرة الجشع التي يستخدمها جامعوا الضرائب من بلاد ما بين النهرين في النصف الثاني من القرن الثامن / النصف الثاني من القرن الثاني الهجري(٩).

وبحث المؤلف نفسه في الفصل السادس من الكتاب عن نمو المقاومة البرجوازية فقال: -

في الوقت الذي كانت فيه ثورات الفلاحين والطبقة العاملة مثل ثورات العيارين، كانت هناك ثورات غاضبة نعبر عن سخطها واستيائها. في الفشل

الذي تعيش فيه اصبحت الطبقة العليا من البرجوازية وفي فترات محددة عامل قوة بالسياسة الشرقية وعندما انحسر النظام الاقطاعي حاولت طبقة البرجوازيين الغنية اخذ موقعها وارساء حكمها الذاتي. ولقد كانت هذه الطبقات تشمل عموما التجار واصحاب الاراضي الاغنياء وذوي المصالح الاقتصادية المتضاربة مع الافراد الاقطاعيين، وعندما أصبحوا مدركين لنقاط ضعف الأمراء لم يترددوا ولو للحظة انتهاز الفرصة والوقوف ضدهم. لقد حدثت معظم الثورات في سوريا وفي العديد من المدن بلاد الرافدين العليا والمناطق المجاورة في اسيا الصغرى. وقد اصبحت البرجوازية في ذلك الوقت هي المسيطرة على الحكومة ولمعرفة السبب من وراء عدم حدوث محاولات مشابهة في العراق ومصر، وجد أن السوريين محبون للحروب، ولكن يبدو هناك سبب اخر، فتقسيم البلد بين مختلف القوى وايجاد بلدان صغيرة جعل من هذه الثورات أكثر سهولة فيها من أي مكان اخر.

ومع ذلك وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر والنصف الاول من القرن الثاني عشر الميلادي / النصف الثاني من القرن السادس الهجري نادى برجوازيو سوريا وبلاد الرافدين العليا بالاستقلال محاولين بذلك تأسيس الدولة الحضرية او بفرض حكمهم عن طريق جعل الحكام الضعفاء كدمى بين ايديهم. وقد كان شكل الحركة مختلفا في المناطق المختلفة. ففي الساحل السوري وفي عام ١٠٧٠م / ٤٦٣ه حيث بدأت القوة الفاطمية بالانهيار، كان القادة قضاة او رؤساء مدن قاموا بفرض حكمهم مستشارين على المناطق الحضرية اما في سوريا الوسطى وفي بلاد الرافدين العليا بدأت الحركة في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي / الخامس الهجري مع انحسار الامبراطورية السلجوقية وهنا اصبح رؤساء المدن الذين تطلق عليهم تسمية (الرئيس) هم قادة ميلشيات المدن (الاحداث) حيث انتشروا في كل مكان لفرض قوتهم كما كانوا قادة للطبقات البرجوازية العليا وبدأت الطبقات الدنيا تخشاهم بسبب تضليلهم للأمراء واصبحوا مجرد قادة مرتزقة يخوضون الحروب مع الصليبيين ومع الاعداء الاخرين[١٠].

وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر/النصف الثاني من القرن الخامس الهجري تطورت العلاقات التجارية بين الموانئ السورية والتجار الايطاليين وفي بعض المدن كانت هناك قوة برجوازية تشعر بأن الدولة الفاطمية قامت باستغلالهم كثيرا عن طريق فرض الضرائب الثقيلة من اجل تحقيق أهدافهم. وقد كان هؤلاء البرجوازيون الاغنياء مهتمين في انتهاز فرص انتعاش التجارة الدولية في شرق البحر الابيض المتوسط(١١).

ولكن توجد في هذه المدن ايضا احزاب تتبنى اتجاها مختلفا اما لأجل تحقيق الحماية بسبب انتهاء الحكم الفاطمي او بسبب الخصام الاجتماعي ضد التجار الاغنياء كان هناك وفي كل مكان طرف يناصر الفاطميون وبشدة ولهذا تم تمزيق المدن التجارية والصناعية عن طريق صراع الاحزاب. كما يوجد هناك تعاطف قوي مع العقيدة الشيعية ولهذا كانت المعارضة مهمة صعبة، ولكن المصالح الاقتصادية كانت اقوى من قبل اندلاع الثورات وقبل زوال النظام الفاطمي.

في عام ١٠٧٠م / ٤٦٣هـ انتفض عين الدولة ابن ابي أخيل وهو قاضي في صور ضد الفاطميين وفرض حكمهم هناك اما بدر الجمالي وهو أحد قادة الخلافة الفاطمية فقد قام بفرض الحصار على المدينة الا انه فشل. وبقيت كل من صور وصيدا ولمدة ٢٠ عام مدناً مستقلة يحكمها ابن ابي آخيل وابنائه الى ان نجح الحكم الفاطمي في عام ١٠٨٩م /٤٨٢ه وفرض سيطرته هناك (١٢). ولقد تحدثت الموروثات الوسطى عن ثورة ابن ابي آخيل الا انه ظهر ومن خلال حديث المؤرخين بأنه كان قائداً لحزب يضم ابناء المدينة الاغنياء يرعى مصالحهم وفي نفس الوقت عملت المدن الموجودة في شمال وجنوب صور على طرد الحكام الفاطميين. وقد قرانا في سفر ابن الاثير بانه في عام ١٠٨٩م /٤٨٢ه قام الجيش الفاطمي بغزو مدن اكير والجبيل.

وقيل بحسب كتابات المؤرخيين العرب بان الحركة الثورية في مدن فلسطين ولبنان لم تسحق بعد، فقد ذكر باندلاع ثورات جديدة في صور في عام ١٠٩٤ و ١٠٩٧ م /٤٨٧-٤٩١ هـ (ومرة اخرى تحدث الكتاب عن عصيان

الحكام المحليين والذي تم قمعه بمساعدة السكان كما اظهرت كتاباتهم وجود حالة تعاون بين ابناء المدينة بعد قمع الثورات اذ ظهر بان المتمردين لهم سند قوي من السكان. وبهذه الطريقة تم التخلص منهم [١٣].

وفي الوقت نفسه قامت طرابلس وهي الميناء الرئيسي في سوريا الوسطى والشمالية في تلك الفترة بالتمرد كما هو الحال في صور، وهنا كان قائد الحركة قاضي المدينة ايضا وهو امين الدولة الحسن ابن العمار الذي كان ينتمي الى عائلة غنية وموقرة وكان يحظى بإسناد الطبقة البرجوازية العليا. وفي عام ١٠٧٠م/ ٤٦٣هـ قام بأخذ طرابلس من الحكم الفاطمي ومن هنا اصبحت مدينة مستقلة يحكمها بنو عمار وبعد موت الحسن قام ابن اخيه جلالة الملك علي بالحكم على طرابلس ل٣٠ عام (١٠٧٢-١٠٩٩م /٤٦٥-٤٩٣م) ونجح في فرض حكمه على جزء كبير من ساحل سوريا وسفوح جبالها وعندما قام في عام ١٠٨١م/٤٧٤ه بانتزاع جباليا من البيزنطيين اصبح ساحل سوريا بأكمله خارج عن نطاق الحكم الاجنبي. وانشأت الدولة الحضرية المستقلة في كل مكان. وقد قام حكامها باستمالة كل من الفاطميين والسلاجقة وقدم لهم الهدايا. يقول أحد المؤرخين السوريين المعاصرين بأنهم كانوا يتناوبون بينهم قدر المستطاع وقد كان اعترافهم بشرعية الفاطميين مجرد رياء وقد قام من جهة اخرى بجمع المرتزقة الذين لم يكونوا من الترك لكي يستطيعوا خداعهم في حالة شن الحرب مع السلجوقيين. وفي عام ١٠٩٢م / ٤٨٥ قام توتوتش وهو امير سلجوقي على سوريا الوسطى. بمحاصرة طرابلس. لكن مع ذلك نجح جلالة الملك ابن العمار في زرع الخلاف بين القادة السلجوقيين وقدم الرشاوى لبعضهم لكي يتم تقوية ذلك الحصار اما القائد الثالث لطرابلس وهو فخر الملك ابن عمار١٠٩٩-١١١٩ م /٤٩٣-٥١٣ه) فقد قام بشن حرب ضروس ضد الصليبين وفي عام ١١٠٨م/٥٠٢ه ترك المدينة ورحل الى بغداد من اجل الحصول على تأييد الخليفة وامراء العراق، وعند اذ نجح فريق من المواطنين بفرض الحكم الفاطمي ولكن في عام ١١٠٩م/٥٠٣ه وقفت المدينة عاجزة امام قوة الصليبيين القوية[١٤].

اما مدينة جبلة فقد تخلصت ومنذ وقت طويل من حكم ابن عمار وقد تمرد قاضي المدينة وهو عبد الله بن منصور بن صالح ضد حاكم طرابلس وجعلها مدينة مستقرة، أصبح ضغط الصليبيين قويا جدا قام في عام ١١٠١م/٤٩٥ه بتسليم المدينة الى توغتكين وهم من اتابكة دمشق الا ان مجموعة من الساكنين ناشدوا ابن العمار على تسلم مهمام الحكومة وبعد ثمانية سنوات وقعت المدينة تحت سيطرة الصليبيين [١٥].

يذكر تاريخ ابن القلانس والمؤرخين الاخرين سرداً مفصلاً عن الصراع الكبير الذي شنه رؤساء دمشق ضد اميرها بنصف قرن وعلى الرغم من قيام الكتاب بتصوير هذا الصراع على انه محصلة للطموحات الشخصية الا ان هناك حقيقة تقضي انه اتفاق بين برجوازي سوريا الاغنياء الذي كان يقودهم بنو الصافي وبنو الامراء الضعفاء لسلالة توغتكين وطالما كان رؤساء عائلة بنو الصوفي يحضون بدعم ميليشيا المدينة ما يسمى " الاحداث " وهم القوة الضاربة للطبقات الدنيا التي كانت هناك الا انهم كانوا انداداً للأمراء.

لقد كان اول رئيس لهذه العائلة امين الدولة الحسن بن الصافي والذي كان يشغل هذا الموقع حتى نهاية القرن الحادي عشر / الخامس الهجري وبسبب الصراع مع امير دمشق تم سجنه للمرة الثانية (١١٠١-٤٩٥ه) وفي عام١١٠٣م/٤٩٧ه ومات في عام ١١٠٤م/٤٩٨ه(١٦) وقد نجح وبمساعدة ولديه ابو المجالي سيف وابو داود المفرجي. ولقد لعب الامير دورا كبيرا في سياسة دمشق وشغل منصب الرئيس حتى علم ١١٣٠م/٥٢٥ه ولقد كان له دور في اسقاط المزكاني الذي وقف الى جانب الباطنية وشن حركة من الاضطراب الاجتماعي بين صفوف الطبقات الدنيا وبلا شك لعب دور المفرجي القائد في هذا الصراع للطبقة العليا من ابناء البلدة مما جعل الباطنيين يخشونه وبعد فترة وجيزه من عام ١١٣٠ م/٥٢٥ه ثم سجنه امير دمشق ولكن بعد مرور عام تقلد منصبه من جديد ولمدة خمس سنوات. في عام ١١٣٥م/٥٣١ه تم قتله من قبل ابن الامير وبعد ذلك أصبح ابن عمه المسيب بن الصافي رئيس الدولة. واستنادا الى تقارير المؤرخين العرب الزم نفسه بدفع مبالغ شهرية من اجل دعم الجيش.

ولهذا قام البرجوازيون بالتحالف مع الامير. وفي عام ١١٤٤م /٥٣٩ه أصبح المسيب وزيرا يتقاسم السلطة مع القائد العام. وبعد موت الاخير في عام ١١٤٩م/٥٤٤ه قام بحث حاشية الامير على التخلص من المسيب وتنصيب نفسه حاكما عليها. وعند ذاك جمع رئيس المدينة القوات وقام بالثورة ضد الامير ومحاصرته في قصره. ان هذه الانتفاضة ادت الى نصر ابن الصافي وكانت عبارة عن ثورة، البرجوازيين.

وكان يتوجب على الامير الاستسلام والمغادرة الى المسيب وهي المواقع التي يشغلها رئيس المدينة والوزير وبعد تحقيق النوايا كافة واهداف البرجوازيين اصبحت المدينة تحت السيطرة الكاملة وثم العمل بسياسة المقاومة ضد مخطط نورالدين وذلك بضم سوريا الجنوبية الى اتحاد دولة سوريا المسلحة.

عز الدولة زين الدولة الحيدر الموسيب الذي توفي عام١١٥٤م/٥٤٩ه

وقد عمل وجود مدينة دمشق الضعيفة على حماية مصالح البرجوازيين ولكن في عام ١١٥٣م/ ٥٤٨ه نشب صراع بين عائلة بني الصافي وقام المسيب بنفي شقيق ابن الدولة حيدرا واستولى على منصبه.

وبعد مرور سنة تم قتل زين الدولة عن طريق امر من الامير وقام سكان المدينة بسلب منزله وقد كتب المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي عن أسباب سقوط بني الصافي حيث ذكر أسباباً من وراء قيام الطبقات الدنيا بتغيير اتجاههم وهو انشغال بنو الصافي بشيء واحد فقط وهو اغناء أنفسهم فقط وقد باعوا المراكز والملكية الخاصة لأفراد المدينة ولهذا قامت الطبقات الدنيا بسحب مساعدتها من البرجوازيين وقد انتهز فرصة الانتصار بمساعدة الاحداث[١٧].

عمل برجوازيو حلب بسياسة مشابهة لتلك المتبعة في دمشق حيث لم يكن هدفهم الاطاحة بالنظام بل حاولوا الاستفادة من الامراء بوصفهم قادة بينما يقوم قائدهم الشخصي بإدارة المدينة كرئيس لها وفي الحقيقة كانت هذه سياسة ذكية ومخطط جيد متكيف مع كافة الاجواء. ولكن مدينة حلب كانت في خطر كبير وحوصرت تقريبا من معظم الجيوش الصليبية ولهذا عامل برجوازيو حلب الامراء كمرتزقة وفي داخل المدينة كانت هناك أحزاب مختلفة كان قادتهم من العوائل المتنفذة. فقد كان بنو خشاب قادة للشيعة أما بنو البادي فقد كانوا قادة للسنة. ولمدة ٤٠ عام كان قادة هذه الأحزاب يدعون مختلف الأمراء للسيطرة على مدينة حلب على امل ان يكونوا دمى متحركة بين أيديهم وتحت سيطرتهم الا أنهم غالبا ما كانوا يصابون بخيبة امل حيث كان الامراء يرفضون الدور الذي ارادوه منهم.

قام ابن الحطيطي وهو رئيس حلب بتسليم المدينة في عام ١٠٨٠م/٤٧٣ه الى الامير مسلم بن قريش وبعد موت مسلم أصبح قائدا متنفذا ونصب نفسه قائدا عاما وقد دعا توتش للسيطرة على المدينة لكن بعد ذلك قام بتغيير رأيه ودعا مالك شاه لنفسه ولقد جاء السلطان الكبير الى حلب وعزل ابن الحطيطي بسبب شكاوي اهل المدينة من سوء إدارته وكان خليفته بركان ابن الفارس والذي يسمى آل مجان ذو هيبة قوية جدا فقد قام بإعدام الكثير من الإفراد

المعروفين وانتفض ضد الامير السلجوقي رضوان وحاصره في قصره الا انه الحق الهزيمة به وتم تعذيبه حتى الموت في عام ١٠٠٧م /٣٩٨ه اما سعيد ابن البادي وهو الرئيس الثاني لحلب وقد قام بأحداث مجزرة عند الباطنية. في عام ١٠١٣م/٤٠٤ه وقام بمصادرة بضائعهم وحسب ما يقوله المؤرخون لقد فعل ذلك لأنه كان من ابناء السنة المتحمسين. ولكننا سوف لن نخطئ عند وصفنا لسياسته مع البرجوازية العليا على كونهم من أكثر الأعداء مرارة لطائفته. وفي تلك الفترة العاصفة من تاريخ حلب كانت هناك تغييرات متلاحقة في حكومته فبعد مجزرة الباطنيين نفي من حلب وأصبح اعدائه بنو خشاب لهم اليد العليا في المدينة. وفي عام ١١١٨م/٥١٢ه قام بتسليمها الى امير اورتوكيد الغازي والذي قام بتعين مكي ابن ورناس رئيساً للمدينة. وبعد ان قام اورتكيد بمغادرة المدينة الحق رئيس المدينة بالحكومة وجمعه مع ابنه سليمان. الا أنهم سرعان ما تمردوا ضده وحينما رجع قتل وفي عام ١١٢٣م /٥١٧ه قام اورتكيد اخر وهو بالاك بالسيطرة على مدينة حلب وسانده بذلك حزب بني خشاب وقام بنفي قادة الاحزاب الذين فرضوا سيطرتهم على المدينة وبعد موته في عام ١١٢٤م/٥١٨ه خلفه ابنه الغازي وقام بتسليم الادارة الى ابن البادية. وقام بتعيين فاضل وهو ابن سعيد البدي رئيساً للمدينة. وقد شغل فاضل المنصب لفترة قصيرة وعلى الرغم من التغييرات المتكررة للأمراء تم استدعاء البرزوقي الى حلب من قبل بنو خشاب ونصبوه عليه ولكن عندما اوصل كوتلغ اباه إلى عرش حلب بمساعدة حزبه أصبح منصبه أكثر قوة. وفي عام ١١٢٧م/٥٢١ه تم طرد كوتلغ لأبيه وأصبح كل حزب ينادي بأحقية العرش.

ضم حزب ابن بادي كل من ارتو كيد سليمان و(بنو خشاب) والسجوقي ابراهيم بن رضوان. وبعد مرور وقت قصير قام المعظم زنكي بضم حلب الى مناطقه المسيطر عليها ووضع نهاية لعنفوان التحالف الطويل الأمد والذي يذكرنا وبشده السياسة المدنية الايطالية في نريساتو[١٨].

كانت الأوضاع في مدن بلاد الرافين الشمالية بمثابة لتلك الموجودة في مدن اوربا الوسطى، فقد كانت رئاسة المدن تعود الى العوائل المنتفذة داخل المدن التي تكون في قبضة الحكومة.

وفي حران، ألقى القبض على الرئيس بركات بن ابي الفاهم عام ١١٢٣م/٥١٧هـ وقد تم سجنه من قبل ارتو كيد بالاك. وفي العمادية، الي تسمى الان ديار بكر، كان رؤساء المدن يتمتعون بقوه جبارة وذلك خلال منتصف القرن الثاني عشر/ منتصف القرن السادس الهجري. وقد أصبحت علاقاتهم مع أمراء المدن أكثر قوة. وكان هذا المنصب قد شغلته عائله ابن نيسان وهو منصب ورثه من الإسلاف. وعندما توفي مراد ابن نيسان عام ١١٥٦م/٥٥١ه خلفه ابنه كمال الدين. وكان الرئيس على ديار بكر ويستمتع بشخصية قوية بحيث استطاع التحدث باسم أمير الموصل ولكنه كان ايضا طاغية مستبداً وحسب ما قاله أحد الكتاب المعاصرين، قام بقمع أبناء بلدته وجعل الكثير منهم يغادرون المدينة. وفي داخل مدينة سنجار الصغيرة تقلدت عائله بني يعقوب منصب رئيس البلدة ولفترة طويلة من الزمن. وكان لعاصمة بلاد الرافدين العليا (الموصل) رئيس ايضا وذكر أحد رؤسائها وفي مناسبة غزوها من قبل السلطان السلجوقي على اسيا الصغرى عام ١١٠٧م/٣٩٨ه [١٩].

الهوامش:

(1)al-Mubarrad، al-Kamil (Cairo 1927-50) VIII، p. 12; H. J. Cohen، 'The economic background and the secular occupations of Muslim juris- prudents and traditionalists in the classical period of Is1am'، JE.S`HO 13 (1970)، pp. 36، 40; C. H. Becker، 'Grundlinien zur wirtschaftlichen Entwicklung Agyptens in den ersten jahrhunderten des Islam'، in his Islamstudien I، p. 205; Ch. Pellat، Le milieu basrien، p. 228f.

(2)A. L. Udovitch، 'Credit as a means of investment in medieval Islamic trade'، JAOS 87 (1967)، p. 260ff; id.، Parinership and profit in medieval Islam (Princeton University Press 1970)، p. 77f; al-Baladhuri، Futuh، pp. 361 1. 13f، 367 1. 5; Chronique de Denys de Tell-Mahré، pp. 92، 156; A. Mez، Die Renaissance des Islam. 358; C. H. Becker، 'Steuerpacht u. LehnWesen'، in his Islam studien I، p. 236; W. Björkman، 'Kapitalsentste- hung und – anlage im Islam'، Mitt.. Sem f. Or. Sprachen، Westasiat. Studien32 (1929)، P. 92.

(3)S. D. Goitein، 'The rise of the Middle-Eastern bourgeoisie in early Islamic tirnes'، in his Studie: in Islamic history and institution: (Leiden 1966)، p. 239;Björkman، art. Cit.، ibid، pp. 82ff، 86f; A. K. S. Lambton، 'The merchant in medieval Islam'، in A locust'.s leg، Studies in honour of S. H. Taqizadeh (London 1962)، p. 122 (quoting al-Djahiz); Ibn Kutaiba، Kitab al-Maarif (Göttingen 1850)، p. 283f; copied by Ibn Rustih (tr. Wiet)، p. 254; H. J. Cohen، art. Cit.، ibid.، pp. 36، 40. The physicians were a class apart، s. Ibn Abi Usaibia I، p. 185f about their dislike of the sons f merchants.

(4)4 A. L. Udovitch، 'Theory and practice of Islamic law، some evidence from the geniza'، . SI 32 (1970)، pp. 291، 303; id.، 'The

"law merchant" of the medieval Islamic world'، in Logic in classical Islamic culture، ed. G. E. v. Grunebaum (Wiesbaden 1970)، pp. 115ff، 122f.

(5) Caetani، Annali IV، p. 109; at-Tabari III، pp. 1103، 1 194f، 1204ff، 1234f، 1254، 1303، 1350، 1435، 1436، 1509، 1550 (misunderstood by Goitein، art. Cir.، ibid، p. 237); D. Sourdel، Le Vizirat abbaside (Damascus 1959) I، pp. 246ff، 255، 254ff. See also at-Tahari III، p. 1661، on Salih b. al- Haitham، the son of a weaver، who became head of the intelligence service.

(6) Max Weber، General economit history (tr. F. H. Knight) (New York 1961)، p. 207; cf. M. Rodinson، Islam capitalismo (Turin 1968)، pp. 51، 56، 72، 75f-

(7) L. Massignon، 'L'influence de l'Islam au Moyen Age sur la fondation et l'essor des banques juives'، Bulletin d'étude.r orientales I، (1951)، p. 3ff; Rodinson، op. cit.، p. 6o.

(8) Becker، Islamstudien I، pp. 185، 215; Ibn Khaldun، The Muqaddimab (tr. Fr. Rosenthal) (New York 1958) II، p. 93f.

(9) Becker I، p. 205; at-Tabari III، pp. I33 of، 1376; Denys de Tell-Mahré، pp. 124، 193، and see also pp. 108، 122f.

(10) On the rais see my paper، 'L'administration urbaine en Syrie médiéva1e'، RIO 31 (1956)، p. 1o8f. '

(11) See my paper، 'Quelques observations d'un orientaliste sur Ia thése dc Pirenne'، JESHO 13، p. 172ff.

(12) Ibn al-Kalanisi، pp. 96، 98، 112، 120; Ibn al-Athir X، p. 40; see also

(13) Nasiri Khosrau، p. 47،

(14) Ibn al-Akalanisi، pp. 124، 133f; Ibn aI-Athir X، p. 180.

(15) Ibn Taghribirdi (ed. Popper) II، pp. 267، 271; Ibn al-Kalanisi، pp. 97f (note)، 139، 160f; Ibn al-Afhir X، pp. 48، 136، 328; cf. G. Wiet، 'Une inscription d'un prince de Tripoli de la dynastie des Banu Am1nar'، Mémorial H. Basset (Paris 1928) II، p. 279ff.

(16) Ibn al-Athir X، p. 211ff; Ibn al-KaIanisi، p. 139; CI. Cahen، La syrie du Nord، p. 233f.

(17) Ibn al-Kalanisi، p. 140; CI. Cahen، 'La Chronique abrégée d'a1-Azimi'، JA 1958، p. 374، and see my paper، "L'administration urbaine'، etc. ibid.، p.93f

(18) See my paper، pp. 94f، 122ff، 127.

(19) See art. Cit.، pp، 95ff، 100.

(20) Art. Cit.، p. 1o1f; the additions of the copyist to Ibn Haukal، p. 223;
(21) Ibn aI-Athir' X، p. 295f.

المصادر والمراجع:

❖ **أولا: المصادر العربية:**

١. ابن الاثير، ابو الحسن علي بن ابي الكرم، اسد الغابة (القاهرة، ١٢٨٠هـ)
٢. البلاذري، احمد بن يحيى، فتوح البلدان(لايدن، ١٨٦٦م)
٣. ابن تغري بلدي، ابو الحسن يوسف، النجوم الزاهرة(طبعة القاهرة)
٤. ابن حوقل، ابو القاسم محمد بن علي، صورة الارض(القاهرة، ١٩٣٧م)
٥. ابن خلدون، ولي الدين بن عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، ترجمة روزنثال(نيويورك، ١٩٥٨)
٦. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، ترجمه الى الفرنسية دي غويه (لايدن، ١٨٧٩-١٨٩٨).
٧. ابن قتيبة، ابي محمد عبد الله، كتاب المعارف(غوتنكن، ١٨٥٠م).استنسخه ابن رسته (ترجمة wiet).
٨. ابن القلانسي، حمزة، تاريخ ابن القلانسي(لايدن، ١٩٠٨)
٩. المبرد، ابو العباس بن يزيد، الكامل في الادب (القاهرة، ١٩٢٧-١٩٥٠م)
١٠. ناصر خسرو، ابو معين الدين، سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب (القاهرة، ١٩٤٥) وهناك طبعة اولى(باريس، ١٨٨١)

❖ **ثانيا: المصادر السريانية المترجمة الى الفرنسية:**

- Denys de tell-mahre، 4 partie publiee، et and trad par J.B. Chabot (paris، 1891)

❖ **ثالثا: المراجع الأجنبية:**

1. C.H.becker، grundinien zur wirtschaftlichen، Entwicklung Agyptens in den ersten Jahrhunderten des Islam، in his Islam studien، 1
2. _____، steuerpacht U.lehen wesen in his islam studien، 1
3. Caetani، Annali، iv
4. 4-Cl.Cahen، la syrie du nord alipaque des craisades (paris، 1940)
5. H.J.Cohen، the economic background and the secular accupation of muslim juris –prudents and traditionalists in classical period of Islam، J.E.S"HO 13 (1970)
6. S.D Goitein، the rise of the middle- easteren bourgeoisie in early islamic times، in his studies in islamic history and institions (leiden، 1966)
7. M.Rodinson، Islam e Capitalismo (turin، 1968)
8. A.K.S. Lambton، the merchant in the medieval islam(london، 1962)
9. A. Mez، Die Renaissance des Islams (heidelberg، 1922)

10. Ch. Pellat، le، milieu basrien et la formation de Gahiz(paris، 1953)
11. D.soured، le vizirat Abbaside (Damascus، 1919)
12. G.Wiet، une inscription dum prince de tripoli de la dynastic des banu Ammar، memorial. H.Basset (paris، 1928)
13. A.L. Undovich، the law merchants on the medieval Islamic world (wiesbaden، 1970)
14. _____، Partnerships and profit in the medieval Islam (princetion university press 1970)
15. max weber، general economic history tr.F.H.knight، (new york، 1961)

❖ **رابعا: المجلات الاجنبية:**

1. E. Ashtor، L'adminstration Urbin en Syrie medievale، RSO 31(1956)
2. C.H.Becker، steuerpacht U.Lehnwesen، in his Islam studien، 1
3. W.Bjorkman، Kapitalsentstehung and an lage in islam، mitt.sem. F.sprachen westsdit studien 32(1929)
4. _____، theory practice of Islamic law، some evidence from the geniza SI (1970)
5. Cl.Cahen، la chronique abregee d"al-Azimi، JA، (1938)
6. H.J. Cohen، the economic background and the secular accupation of the muslim jurisorudents and traditionalists in the classical period of Islam، JESHO 13 (1970)

7. L.massignon، L"influence de l"islam an Moyen Age sur la fondation et l"essor des banques، Juives، Bulletin d"etudes orintales 1 (1931)
8. A.L. Udovitch credit as a means of investment in medieval Islamic trade، JAOS 87 (1967)

The Islamic Bourgeoisie in the Near East In the Abbasid period

Translated by
Prof.phd. jasim Sagban Ali
College of education for women
Baghdad University

(Abstract)

The shortcomings of the Muslim regime were however, became more obvious in later periods. Under the first Abbasids, the Muslims bourgeoisies were still a new class, rising in the social hierarchy of the caliph empire. It became even powerful class and a factor to reckon with. It seems that many orientalists have overlooked the fact that for three hundred years, the near eastern bourgeoisie tried to resist the feudal lords and that the struggle between these two classes was one of the leitmotifs of oriental history .

The numerous reports we have quoted from the Arabic sources point to a remarkable synchronism everywhere in

the lands of the obtained its share in the government and urban republics came into existence, but the tide ebbed away. in some regions the feudal princes recovered their strength, in others a new regime was established.